باحثة البادية

ملك حفنى ناصف

للسيدة الجليلة هدى شعراوى

" هذا نص المحاضرة التى أذاعتها السيدة هدى شعراوى من محطة الإذاعة اللاسلكية فى ١٧ أكتوبر الماضى لمناسبة إحياء الذكرى الثانية والعشرين لوفاة الطيبة الذكر السيدة ملك حفنى ناصف التى عرفت فى حياتها باسم باحثة البادية " .

مواطنى الأعزاء :

فى مثل الظروف التى نجتازها الآن، أى فى سنة ١٩١٨ ، وفى مستهل نهضتنا النسوية ، فوجئنا بفقد ركن من أركان تلك النهضة بوفاة الكاتبة المصلحة الكبيرة السيدة الفاضلة ملك حفنى ناصف .

فقدنا تلك الزهرة اليانعة التى كان يعطّر عبيرها أرجاء نهضتنا النسوية الناشئة إذ ذاك ، فكان لفقدها وهى فى ريعان شبابها وجم نشاطها الأدبى والفكرى أثر عميق فى نفوسنا نحن معشر السيدات خاصة ، وفى نفوس مقدريها من أبناء وطنها عامة ، لما كانت تؤديه لبلادها من خدمات قيمة فى عالمى الأدب والاجتماع ، فضلا عما كانت تحلى به من حميد الصفات وكريم الأخلاق .

كانت تمتاز من أترابها بسعة العقل ورجاحة الفكر وعلو الهمة ، كل ذلك فى وداعة ورقة كانتا تقربانها إلى القلوب وتزيدانها عند الناس تقديرا لمواهبها و إعجابا بهمتها ونشاطها، ولم تتجاوز وفاتها الثانية والثلاثين من عمرها .

قضت باحثة البادية ونحن أشد ما نكون احتياجا إلى أبحاثها وجهودها ، لقلة مثيلاتها بين السيدات المصريات . على أنها فى تلك المدة القصيرة التى تناولت فيها بالبحث حياتنا الاجتماعية ، أمكنها أن تعالج كثيرا من أدوائنا و بخاصة ما كان منها ماسا بحقوق المرأة وسعادة الأسرة ، بطريقة مجدية راعت فيها الاعتدال وعدم التطرف فى أحكامها ونقدها ، فامكنها أن تؤدى رسالة ما كان يتسنى لغيرها أن يؤديها فى مثل تلك المدة القصيرة .

لمست الباحثة عن كثب معظم نواحى النقص فى حياة الأسرة المصرية ، وتألمت من الفوضى التى كانت تسودها ، فانطلقت فى تحليلها وعلاجها بمنهج حكيم خاص بها ، حتى أمكنها بما كانت تنشره من المقالات وما كانت تلقيه من المحاضرات والخطب أن تؤثر فى النفوس وتنبه الأذهان الى عدالة القضية التى كانت تدافع عنها ، ففسحت أمهات الجرائد صدرها لمقالاتها ، كما رحبت الجامعة المصرية ودار الجريدة بالقاء خطبها ومحاضراتها على السيدات ، فلم تترك مسألة تعنى الأسرة أو تمس حياتنا الاجتماعية إلا تناولتها بالبحث والعلاج ، وكانت فى كل تلك المقالات والخطب بليغة فى النسج ، حكيمة فى النهج ، عادلة فى النقد ، سلسة فى الأسلوب ، بعيدة عن الغرض والغرور .

كم كان يشجينى ذلك الصوت الصادر عن "البادية" الذى كنت أجد فيه صدى صوت قاسم نصير المرأة ! وكم كانت تعجبنى ردودها على مقالات كبار الكتاب والأدباء ؟ وكم أطربتنى دعاباتها مع الآنسة (مى) وردها على قصيدة أمير الشعراء :

صداح يا ملك الكنا ... ر ويا أمير البلبل

وبقدر ما كانت تسرنى دعاباتها مع الآنسة (مى) بالأمس أصبح يحزننى اليوم فقدها وصمت (مى) وحرماننا من تغريدها الشجى ونفحات أدبها الفياض . وفى هذا المقام يحلو لى أن أسرد بعض مقتطفات من مكاتبات دارت بين هاتين الكاتبتين النابغتين ، وكانت "الباحثة" قد اعتزلت الكتابة فترة من الزمن فكتبت اليها (مى) تحثها وتستفزها :

"سنوات ثلاث مرون على يوم ارتفع فيه صوتك مرشدا . عائلتنا لا تزال على ما كانت عليه ، وأفكارنا لم تتغير إلا قليلا ، وعواطفنا ما برحت حائرة فى تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعى أننا نعلم وما نجهل أننا لا نعلم ، غير أن الأصداء الخفية ما زالت ترجع همس ذلك الصوت الرخيم .

"بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتى روحى وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بنانى على غير هدى ، ولم يكن ذلك إلا إجلالا لصفحات قلبتها وحبا لنفس استجوبتها فعرفتها .

"فيا من ارتفع قلبها إلى فكرها ، وانحنى فكرها على قلبها ، أيتها الباحثة الحكيمة لماذا تصمتين ؟

ضمى يدك البارة إلى الأيدى التى تحاول رفع هذا الجيل من هوة الحيرة والتردد ، ساعدى فى تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتا خارجا من أعماق القلب بل من أعماق الجراح كصوتك قد يفعل فى النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار" .

فكان رد الباحثة :

"كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندى ، ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل ، ولكنى كنت مللت المناداة باصلاح المرأة المصرية ، وثبط عزمى ما أراه من انصراف

فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة ، وما حركتهم التى ملأوا بها مصر صراخا الا عنوان نهضة كاذبة " .

وما أحلى شروط مطالبتهما المساواة وتحليلهما أنانية الرجل ومقارنتها بطبيعة المرأة وتفانيها فى الاخلاص . من ذلك قول (مى) فى الرجل :

" ... لكنه ملك عزيز : هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج ، فاذا سقط سقطنا معه ، واذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات ، لذلك نريد له خيرا ونجتهد فى تأييد دولته ، بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه ، وأن نقف الى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل ، نريد أن نكون متساويين فى الحقوق الأدبية والعمرانية ما دمنا متساويين فى الواجبات والمسئولية ، بل إن واجباتنا ومسئوليتنا يفوقان ما عليه من مسئولية وواجبات . فيا ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة ؟ " .

فردت عليها الباحثة فى صدد مسألة الرجل قائلة :

" عجيب جدا يا سيدتى أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذى يسمى (بالرجل) . انى أعتقد أنه كريم شجاع ، وله قلب حساس ، ولكنى أظنه — و بعض الظن إثم — أنانيا قبل كل شىء ، ورأيى أن أنانيته وحدها هى أصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعبدها لا لأنه يبغضها أو يتمنى لها السوء ، ولكن ليلهو بها . وهو يحبها و يموت لأجلها ، لا لأنه يحبها ، ولكن ليلهو بها . وهو فى كل ذلك واسع الحيلة قوى الحجة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب .

" أما المرأة فهى دائما تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقة و إذا كرهته كرهته علانية ولم يكن لذلك البغض من دواء . عرف ذلك أبو الطيب فقال :

و إن حقدت لم يبق فى قلبها رضا و إن رضيت لم يبق فى قلبها حقد

" هى صادقة مخلصة دائما حتى وهى خاطئة " .

الى أن قالت تصف إخلاص المرأة و إنكارها لذاتها وتبين أنانية الرجل :

" المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت ، إنها تعلم أن حريرها الذى تقدمه للملأ زينة وحلية سيقتلها ، ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه . أما الرجل فهو كالنحلة ينتقل من زهرة لزهرة متروضا ، وقد يطيل المكث على زهرة ناضرة ، وانما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها . إنها تحب الأزهار حينا ولكنها تلهو بها أحيانا فتتركها هشيما ، وهى تقدم للناس عسلا فيه شفاء لهم ، وشمعا نافعا ولكنها تعملهما لغذائها وسكنها قبل كل شىء .

" ظلمنا الرجل حقوقنا ، لا لأنه كان ينوى ظلمنا ، و إنما هو أخطأ كثيرا فى حسبانه أن ما يزيد فى قوتنا يضعف من قوته هو . لعله ظن أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر الينا نظر الدعيات الثائرات ، و إنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوة فى مملكته ونرجو منه أن يفك عنا

الخناق فى مملكتنا المستقلة التى تشدّ أزره ولا تفكر فى إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقوة. إننا نتقدم اليه كأننا ساعده الذى يريد أن يخدمه لا كأننا يد غريبة تريد أن تضربه ، إننا منه وهو منا فليطب نفسا وليقرّ عينا وليعطنا ما نشاء " .

وفى خطاب آخر لها كلمات تكاد تعبر عن شعور المرأة فى الوقت الحاضر :

" ... نحن لا نأبى أن نتبع رأى العقلاء والمصلحين من الأمة ، ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتعدى للكتابة فى موضوع المرأة من العقلاء والمصلحين ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها ، ولا يستبد فى (تحريرنا) كما استبد فى (استعبادنا) . إننا سئمنا استبداده ، إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس ، وإنما نخاف عينيه ولسانه ، فان وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه ، وأن يكن لسانه كما يوصيه الأدب ، نظرنا فى أمرنا وأمره ، وإلا فكل منا حر يفعل ما يشاء ... " .

كنت أطرب وأشجى بكل هذا ، وما كنت قد تعرفت بالباحثة حتى سنة ١٩٠٨ حيث مرت بمصر إحدى الأديبات الفرنسيات ، الآنسة مرغريت كليمان ، فى رحلة تعليمية ، وكانت قد نيط بها إلقاء محاضرات فى البلاد التى تمر بها . فدعوتها لإلقاء محاضرة على السيدات المصريات بالجامعة المصرية ، وكانت تلك أول محاضرة حضرتها سيداتنا المصريات . وهناك تعرفت بالباحثة وكانت بين المدعوات ، ثم بلغنى بعد ذلك أنها تأثرت من عدم دعوتها إلى إلقاء مثل هذه المحاضرة بدلا من سيدة أجنبية بينما تأنس هى فى نفسها من الكفاية ما يؤهلها لذلك ، فسرنى منها ذلك العتب وتلك الغيرة القومية ، وحمدت الفرصة الطيبة التى أتاحت لى معرفة الباحثة وكنت أعجب بها وبكتاباتها وبآدابها قبل أن أراها ، وزادنى سرورا وغبطة أن اكتشفت فيها شخصية عظيمة وخطيبة مفوهة لا تقل طلاقة وبلاغة عن مثيلاتها الأجنبيات ذوات الشأن فى بلادهن ، فصرت بعد ذلك أدعوها إلى اجتماعاتنا وأطلب منها الانضمام الينا ومساعدتنا فى تحقيق مشروعاتنا النسوية ، ولكن لسوء الحظ عاجلتها المنية فى وقت كنا نتطلع إلى ثمار غرسها واستمرار جهادها . وكم عز علينا ألا نجدها فى طليعة صفوفنا أثناء الحركة الوطنية ، وألا نسمع نبرات صوتها العذب الجهورى يدوى فى المؤتمرات النسوية التى حضرناها فى العواصم الأوروبية ، كما ارتفع فى مؤتمر مصر الجديدة سنة ١٩١١ بالطلبات التى أرسلتها كتابة إلى رئيس المؤتمر .

سادتى سيداتى آنساتى :

إن كان لنا شىء من السلوى على فقد الباحثة فانما نجده فى تحقيق بعض مآربنا المشتركة وقد عاهدنا أنفسنا ألا نألو جهدا فى تحقيق الباقى منها خدمة لوطننا ووفاء بالعهد الذى قطعناه على أنفسنا ، فلتطمئن روحها الطاهرة ولتسعد فى عالم الخلد الذى تحيا فيه ، فلقد تحققت

أمانيها فى طريقة الخطبة والزواج والطلاق ، ولنا ما كانت تطلبه للفتاة من التعليم الابتدائى والثانوى بل تعديناه إلى التعليم العالى ، وها هى الجامعة على اختلاف كلياتها تضم بين جدرانها المئات من بناتنا ، وقد تخرج منها المحاميات القديرات أمثال النابهات نعيمة الأيوبى ومفيدة عبد الرحمن وعطيات الشافعى وفريدة حسان . وها هى معاهد التدبير المنزلى قد ارتفع شأنها حتى أصبحت مدارس عليا للثقافة النسوية تخرج منها الفتيات المكتملات التعليم فى مختلف العلوم والفنون . وقد أصبح كثير من السيدات المصريات يشغلن الوظائف الحكومية المختلفة . وفتياتنا قد تعدين تعليم الإسعافات الوقتية إلى التطوع فى الهلال الأحمر وخلافه من نواحى الخدمة الإنسانية والاجتماعية . ومن سيداتنا وآنساتنا الناظرات والمدرسات من يشغلن بجدارة واستحقاق المناصب التى كانت تشغلها الأجنبيات من قبل ، مثال السيدات والآنسات إنصاف فهمى ، ودرية فكرى ، وعلية فهمى ، وزينب الحكيم ، وحنيفة حفنى ناصف ، ومنيرة صبرى ، ودرية شفيق ، وجليلة البحراوى ، وغيرهن ، ومنهن من يشتغلن بالصحافة والتعليم الحر بكفاية ومقدرة كالسيدات : نبوية موسى ، ولبيبة هاشم ، وأيمى خير ، ونللى زنانيرى ، وروز اليوسف ، وسيزا نبراوى ، وفاطمة نعمت راشد ، وابنة الشاطئ ، وأمينة السعيد ، وإيفا حبيب المصرى وغيرهن مما يضيق المجال بذكرهن .

وبمناسبة الحديث عن الصحفيات أذكر مع الحزن والأسف الشديدين فقيدة الصحافة وصديقة الباحثة المرحومة السيدة بلسم عبد الملك التى حرمت الصحافة المصرية من جهودها القيمة وإخلاصها ووطنيتها .

وقد برز فى عالم الأدب من بناتنا الفضليات الشاعرة القديرة الآنسة جميلة العلايلى والكاتبة المجددة الآنسة سهير القلماوى والآنسة المثقفة عزيزة فوزى والسيدة المحترمة فائقة رفيق فتحى حرم المرحوم رفيق فتحى بك ، وكثيرات غيرهن فى عالم الطب من الطبيبات أمثال كوكب حفنى ناصف ، وهيلانه سيداروس ، وتوحيدة عبد الرحمن ، وغيرهن كثيرات يمارسن مهنة الطب ويجدنها إجادة لا تقل عن إجادة الأطباء .

إن هذا لمن دواعى سرورنا وافتخارنا ، ولا زلنا نتمنى لفتياتنا الناشئات المزيد من النجاح والتوفيق ، ونرجوهن أن يضاعفن جهودهن وألا يجعلنها مقصورة فى حدود عملهن الشخصى بل يجب عليهن أن يعملن للمجتمع ويؤدين واجبهن نحو وطنهن ويقتفين آثار البارزات من أخواتهن . ففى " الباحثة " مثل للعبقرية جدير بأن يحتذى وفى (مى) مثل للنشاط ووفرة الانتاج فى عالمى الأدب والاجتماع . والله ولى السداد والتوفيق ؛

هدى شعراوى